الترجمة الأدبية
بين الأسر و التحرر

صغور أحلام
جامعة وهران

تأتي الترجمة الأدبية في مقابل الترجمة العلمية، و هي تعنى بترجمة الأدب بكل أنواعه المختلفة مثل : الشعر، القصة، الرواية، المسرحية... وهي تعد نشاطا ذا خصوصية و تفرد؛ لذلك تطورت دراساتها و ازدادت قوة و ثباتا، و أصبحت منذ نهاية السبعينيات دراسات أكاديمية قائمة بذاتها، لها منهجيتها الخاصة و عدد متزايد من رسائل الدكتوراه المكتوبة في موضوعاتها، و لها دورياتها و رابطاتها المهنية المختصة بها.

و تنبع خصوصية الترجمة الأدبية من خصوصية النصوص الأدبية نفسها؛ فالأدب ليس مجرد رصف لكلمات رنانة، و تعابير منمقة ؛ إنه مرآة تعكس حضارة الشعوب و ثقافتها، كائن حي و حيوي يؤثر و يتأثر ؛ لذلك فإنه يعيش أثناء مغادرته لغة المنشأ إلى اللغة المستهدفة تغيرات دلالية و أسلوبية وجمالية تؤدي إلى وصف الترجمة بالخيانة ، " و لكن خيانة كهذه هي من صميم عملية الترجمة التي تظل " من أنبل النشاطات الإنسانية " على حد قول الأديب الألماني الكبير (غوته) . أما القول إن كل ترجمة " خيانة " فهو قول يقوم على سوء فهم لطبيعة العملية الترجمية نفسها. " 1

و ليست الخيانة التهمة الوحيدة التي ألحقت بالترجمـــة ؛ فهـــي – قياســـا لبعض المفاهيم الخاطئة – عملية ثانوية أو قل فنا فرعيا غير أصيل، لا تتطلب الكثير من الحنكة و الإبداع ؛ فهي " تخون " و " تشوه" و " تضـــر" و " تفقـــد" بعض أجزاء النص الأصلي ، مثلما " تفقد " النص قيمته الأدبية و الفنية.

و لقد ذهبت منظرة الترجمة لورى تشـــامبرلين Lori Chamberlain إلى إضفاء الصبغة الجنسية على مصطلح الخيانة حين حاولت تشـــبيه العمليـــة الترجمية بالزواج " فعلى ما يبدو بطريقة مألوفة في العبارة الفرنسية " الخائنات الجميلات " Les belles infidèles، فالترجمة طبقا لهذا القول المأثور لا بد أن تكون إما جميلة أو مخلصة، و هذه العبارة توصل معناها عن طريـــق الســـجع الموجود في العبارة الفرنسية، بالإضافة إلى أن كلمة " الترجمة " بالفرنسية هي اسم مؤنث مما يجعل تذكير العبارة ضربا من المستحيل، و استمرار اســـتخدام هذه العبارة لزمن طويل – حيث إن صياغتها تعود إلى القرن السابع عشـــر – يرجع إلى ما هو أكثر من التشابه الصوتي، فما يعطيها مظهر الحقيقة هو أنهـــا تعبر عن وجهة نظر هذه المثاقفة حول وجود اتفاق بين قضية الإخـــلاص فـــي الترجمة و في الزواج، ففي عبارة " الخائنات الجميلات" يحدد الإخلاص كعقـــد ضمني بين الترجمة (كامرأة) وبين الأصلي (كـــالزوج أو الأب أو الكاتـــب) ولكن هذا المقياس المزدوج ذا السمعة السيئة ينطبق هنا مثلما ينطبـــق علـــى الزيجة التقليدية : فتتم محاكمة الزوجة / الترجمة الخائنة لاقترافها جرما يكـــون الزوج/الأصل غير معرض لاقترافه قانونا، و باختصار فإن هذا العقد يجعل من المستحيل بالنسبة للأصل أن يكون مذنبا لاقترافه جريمة الخيانة." 2

لقد كاد سوء فهم طبيعة العملية الترجمية أن يؤدي إلى القضاء على هـــذا الفن قضاء كاملاً ؛ فهو لم يكن يمنح أبدا المكانة السامية التي كانت تمنح للعمل الأدبي، كان دائما يحتل مكانة أدنى من العمل الأصلي، و كان المترجم ملاحقـــا

بالتعبير الاستعماري " المترجم **عبد** للنص الأصلي " لأنه ليس صانع هذا النص، ولأنه ينقل أفكارا ليست له، بل هي في الواقع أفكار غيره .

لقد مرت الترجمة بمرحلة حرجة كان من نتائجها تدني قيمتها وتردي المستوى المطلوب، و أصبحت بحاجة إلى إعادة نظر و إعادة اعتبار. و كان السبيل الذي انتهجه دارسو الترجمة للارتقاء بمكانتها يرتكز بادئ ذي بدء على شن هجوم ضد سطوة النص الأصلي، ووضع الترجمة في مكانة أدنى، و ظهر ذلك من خلال دراسة أجراها ايفان- زوهار EVEN Zohar صاحب نظرية الأنظمة المتعددة أو النظرية المتعددة الأنساق " التي هيمنت على ميدان البحث في الترجمة قرابة خمس عشرة سنة مفادها " أن الفن و الأدب لا يقومان على المطلقات، بل يظلان معطيين من معطيات الحضارة مصدرهما إثني و تاريخي في آن. و من تم لا يمكن اعتبار نص، مهما كانت طبيعته، مجرد تجميع لكلمات، و لو كان تجميعا خلاقا، بل يبقى حصيلة لإرث طويل و لنسيج ثقافي طويل يحمل بصماته، و هكذا، فكل تحويل يفترض عملية نزع النص من السياق كما يولد، لا محالة، سيرورة مثاقفة كي تضم مقروئيته الكتاب. الكتاب داخل شبكة من العلائق مخالفة لسياق الإنتاج "3

لقد حاول EVEN ZOHAR من خلال بحثه أن يلغي فكرة السلبية التي ألحقت بالترجمة و أن يعيد لها المكانة المرموقة التي تليق بها وذلك بلفت الانتباه إلى الكثير من القضايا التي تمس بصورة مباشرة وظيفة الأدب المترجم داخل النظام الأدبي لأي عصر، و دوره في التحولات الاجتماعية و الثقافية وكذا السياسية لأي أمة؛ فالترجمة الأدبية هي فعلا مثلما وصفها العالم التشيكي فلاديمير ماكورا " سلاحا نبيلا " يمكن من غزو أراضي العدو بهدف الاستيلاء على غنائم الحرب و ثرواتها.4

لقد مهدت هذه البحوث إحدى السبل التي تقود إلى مراجعة النظرة التـــي كانت سائدة سابقا حول المكانة السلبية للترجمـــة و اعتبارهـــا نشـــاطا ثانويـــا، هامشيا، أدنى من العمل الأصلي من جهة و استسلاما لدوافع ثقافية خارجية من جهة ثانية، لتتحول إلى سلاح فتاك، قوة فعالة لها القدرة على التأثير في التاريخ الأدبي لأي أمة. " فإذا نظرنا إلى تاريخ الآداب القومية في العالم، نجد أن تلـــك الآداب، قد كانت في تفاعل مستمر فيما بينها. و يأخذ ذلـــك التفاعـــل و التبـــادل أشكالا مختلفة أبرزها و أهمها على الإطلاق هي الترجمة الأدبية. فهي قديمـــة قدم الآداب القومية نفسها، وقد مثلت على مر العصور سبيلا للتفاعل بين تلـــك الآداب ."5

و كان من نتائج هذا التحول الهائل في النظرة إلى الترجمة تفجر العديـــد من التساؤلات التي كانت تبدو بلا أهمية من قبل ؛ حاولت المنظـــرة ســـوزان باسنيت حصرها في الإشكاليات التالية : " لماذا تقوم بعض الثقافات بالترجمـــة بغزارة وبعضها نادر؟ ما نوع النصوص التي تتم ترجمتها ؟ ما هي مكانة هذه النصوص في نظام لغة الهدف ؟ كيف يمكن مقارنة تلك المكانة بمثيلتها في نظام لغة المنبع ؟ ما الذي نعرفه عن تقاليد الترجمة و معاييرها في أوقـــات معينـــة وكيف يمكننا أن نقيم الترجمة كطاقة إبداعية ؟ ما هي العلاقة في تـــاريخ الأدب بين النشاط المكثف للترجمة و بين إنتاج النصوص التي تعتبر جزءا من الأدب المعترف به ؟ ما هو تصور المترجمين لعملهم و كيف تم التعبير مجازيا عـــن هذا التصور ؟" 6. إن الالتفات إلى طرح مثل هذه التساؤلات دليل قاطع علـــى طبيعة التطور الذي عرفته دراسات الترجمة في تلك الفترة الحرجة التي حاولت فيها أن تفتك مكانتها اللائقة.

إن ما حدث من انتصار في مجال دراسات الترجمة سلط الضـــوء أكثـــر على إشكالية جد حساسة ألا وهي إشكالية" الدقة " في الترجمة الأدبيـــة، فبعـــد

ظهور نظرية الأنظمة المتعددة في بداية السبعينيات و تطور دراسات الترجمة واحتلالها مكانة أدبية رفيعة تم اعتبارها وسيلة تعليمية أيضا تساهم في تلقين اللغات الأجنبية. "لقد كان من نتائج تطور القواميس الثنائية و كتب القواعد اللغوية و الكتب المقررة لدارسي اللغة المبنية على النقل الحرفي للكلمات بين اللغات أنه تم تطبيق نوع من الترجمة داخل الأنظمة التعليمية يقوم على فكرة الدقة التي يمكن حسابها، ومن أجل قياس كفاءة الطالب في دراسة اللغة الأخرى فإن المطلوب هو دقة حرفية في ترجمة نص المنبع، ولكن في الوقت ذاته – وكما أدرك درايدن– فان ترجمة الشعر التي تستخدم نفس هذا الأسلوب ينتج عنها كارثة "7.

إن اللبس الذي نجم عن استخدام الترجمة كوسيلة لتعليم اللغات الأجنبية أثبت أن الدقة في الترجمة الأدبية مشروع فاشل، كما أن فكرة الأمانة التامة في الترجمة الأدبية فكرة خاطئة. فالترجمة الأدبية ليست عملية آلية أو عملية نقل ميكانيكي لنص من لغة إلى لغة أخرى. إن هذه الطريقة و إن كانت مجدية مع النصوص العلمية، نظرًا لنمطيتها، لا مجال لتطبيقها على النصوص الأدبية ؛ إنها " عملية إبداعية يعاد من خلالها خلق النص الأدبي في لغة جديدة ، وفقا لمستند مكتوب باللغة الأصلية لذلك النص. أما الناتج فهو في الحقيقة عمل أدبي، بلغة جديدة وأسلوب جديد، ومعان ودلالات جديدة، وإن كان هذا العمل يحمل اسم مؤلفه و عنوانه الأصليين" .8

فالترجمة الأدبية من أصعب أنواع الترجمة مراسا، وتنجم صعوبتها من خصوصية النص الأدبي، الإبداعية و البلاغية والأسلوبية و الجمالية و اللسانية وخارج لسانيةExtra linguistique ، و في هذا يرى الأستاذ محمد عناني أن "المترجم الأدبي لا ينحصر همه في نقل دلالة الألفاظ أو ما أسميه هنا بالإحالة REFERENCE أي إحالة القارئ أو السامع إلى نفس الشيء الذي يقصده

المؤلف أو صاحب النص الأصلي بـــل هـــو يتجـــاوز ذلـــك الـــى المغـــزى SIGNIFICANCE وإلى التأثير EFFECT ، الذي يفتـــرض أن المؤلـــف يعتزم إحداثه في نفس القارئ أو السامع، و لذلك فهو لا يتسلح فقـــط بالمعرفـــة اللغوية بجميع جوانبها السابقة، بل هو يتسلح أيضا بمعرفة أدبية و نقديـــة، و لا غنى فيها عن الإحاطة بالثقافة والفكر، أي بجوانب إنسانية قد يعفـــى المتـــرجم العلمي من الإحاطة بها."9

لا يثير محمد عناني هنا قضية الوظيفة الإيحائية للنص الأدبـــي فحســـب وإنما يذهب إلى التبيين، أيضا، أن المعاني في النصوص الأدبيـــة ليســـت ذات دلالات إيحائية فحسب، و إنما تتحكم فيها أيضا عناصـــر بلاغيـــة و أســـلوبية وأيقونية تملي على المترجم مقاربة خاصة ابتغاء التأثر و التأثير ؛ " فالمعنى في النص الأدبي لا يمكن تجريده من الشكل الفني الخاص بالعمـــل ، بـــل و مـــن الأنساق الثقافية لهذا العمل "10، فموسيقى النص، و إيحاءات الكناية و المجـــاز والحكم والأمثال الشعبية والعادات والتقاليد و الأعراف ... و كل ما عســـاه أن يؤثر في الآخر يتطلب من المترجم منهجية خاصة أثناء الفعل الترجمي. فما هو معيار نجاح أو جودة الترجمة الأدبية؟ أهو دقتها و أمانتها ؟ أو هـــو مطابقتهـــا للنص تطابقا تاما ؟ أو هو مدى اقترابها من النص الأصلي ؟

عن هذا السؤال يجيب د . عبده عبود قائلا : " جودة الترجمة أي درجـــة تعادلها مع الأصل هي مربط الفرس و بيت القصيد والمعيار الأول الذي نحكـــم بموجبه على نجاح الترجمة"11.

يحدد لنا د.عبده عبود المعيار الأول الذي يحدد نجاح الترجمة ألا وهـــو مسألة التعادل أو التكافؤ الجمالي في الترجمة الأدبية، فعلى عكس النص العلمي الذي يعنى بالمضمون فإن النصوص الأدبية تركز على ثنائية الشكل والمضمون معا، و إن كان معيار الجودة في النوع الأول هو الدقة في نقل المضمون فـــإن

الترجمة الأدبية الجيدة " هي التي تقترب من الأصل، ليس على الصعيد المعنوي أو الدلالي فقط ، بل على الصعيد الأسلوبي أو الجمالي، أي تتعادل مع الأصل جماليا و دلاليا."12 وهذا يتوقف على قدرة المترجم و براعته، بوصفه القائم على تنفيذ عملية الترجمة من اللغة المصدر إلى اللغة المستهدفة ؛ إنه يقوم بالدور الأساس في تحقيق نجاح العمل الأدبي من عدمه ؛ فكم من أعمال أدبية شهدت نجاحا و رواجا منقطع النظير بعد ترجمتها إلى لغات أخرى لم تشهده في لغتها الأصلية ويكفينا دليلا على ذلك أن الأدب الفرنسي لم يعرف وليام شكسبير إلا بعد ترجمة أعماله من قبل الكاتب الفرنسي الكبير فولتير. كما أن أعظم الأعمال الأدبية قابلة لأن تشوه و تسحق بسبب ترجمة رديئة. إن تحقيق التعادل الدلالي و الأسلوبي بين النص الأصل و الترجمة ليس بالأمر الهين، بل هو يتطلب مهارة و اتقانا يستحقان التقدير.

إن عبارة " المترجم عبد للنص " التي لازمت المترجم طويلا و التي كانت تساوي بينه وبين الخادم المطيع المخلص لسيده، وتضع الترجمة في موقع أدنى من النص الأصلي ، تنسحب هنا فاسحة المجال لتعابير أخرى أرقى وأنضج ليصبح المترجم " كاتبا " ، " مبدعا " و " حاملا للحضارة الإنسانية"... ضف إلى ذلك العبارة التي اصطفاها الباحث فورطيناطو إسرائيل عنوانا لكتابه "الترجمة الأدبية، تملك النص ". و الكلمة الأساسية هنا هي كلمة " تملك "، فالمترجم الناجح مدعو لأن يتملك النص المراد ترجمته أي أن يستوعب مضمون النص جيدا قبل أن يباشر عملية الترجمة. فالاستيعاب الكامل لمضمون النص – كما لا يخفى على دارسي الترجمة – أهم خطوة في العملية الترجمية لأي نص من النصوص على اختلاف أنواعها، و هو لا يتأتى إلا بعد القراءة المتأنية و المتكررة للنص الأصلي ؛ بيد أن النصوص الأدبية نصوص مركبة ومتعددة المشارب، فلكل عمل إبداعي مرجعياته الأسلوبية و الاجتماعية

والفكرية... إنه نص " ملتبس بطبيعته، خلافا للتواصل اليومي الذي يعتبر فـــي غالب الأحيان أحاديا؛ و هذا لأنه يتكون من شبكات دلالية معقدة تجعل من تعدد القراءات، دون هدم البنيات، أمرا ممكنا "13.

إن النص الأدبي كائن حي، حيوي، صادر عن وعـــي فـــرْدي و رؤيـــة شخصية للعالم ، لذلك من الخطأ الحديث عن قراءة واحدة للنص الأدبي بل هي قراءات، تفتح المجال للعديد من التأويلات، ومن الخطأ الاعتقاد أن المترجم يقوم بتفسير النص الأدبي تفسيرا موضوعيا، لأنه لا ينطلق من فراغ، و إنمـــا هـــو محكوم بميوله واتجاهاته الثقافية و الأدبية والفكرية ؛ لذلك يفسر كـــل متـــرجم النص الأدبي بطريقته الخاصة، وهو الأمر الذي يقودنا إلى القول إن الفهم يظل " فعلا تأويليا ذاتيا إلى حد بعيد ، كما يشترط بدوره إلى حد كبير و على نطاق واسع ، فهم العمل الأدبي فيما بعد من طرف الجمهور "14. و ربما هذا مـــا يفسر اشتراك عدد كبير من المترجمين في اختار نفـــس النمـــوذج التطبيقـــي؛ فالكثير من الأعمال الأدبية نجدها قد ترجمت، و في فترات جد متقاربة ، مرة و مرتين و ربما أكثر ، من قبل مترجمين مختلفين ، و كان لكل ترجمة منهـــا وقع خاص و أثر مختلف في نفس الجمهور الواحد ، و لنسق هنا رأي د. سعيد علوش في تعدد ترجمات الأثر الواحد، من خلال دراسة إحصائية مقارنة أجراها بين الترجمات المشرقية و المغربية في العالم العربي لبعض الأعمال الأدبيـــة، مثل ترجمة " ليلة القدر" La nuit sacrée للطاهر بن جلون *:

" لماذا نستنكر، إذن، ترجمة ليلة القـــدر ترجمـــة مغربيـــة ســـنة 1987 وترجمة مصرية سنة 1988، أليس من حق القارئ أن يتذوق فاكهـــة الخلفـــاء بنكهتين و على مائدتين " . 15

يبين سعيد علوش من خلال موقفه هذا أن تنوع الترجمات دليل قاطع على تنوع القراءات للعمل الأدبي الواحد و على عدد التأويلات التي يحتملها النص الأدبي وهو ما يخلق – في نظره- " وحدة في التنوع ، فليست الترجمة مشرقية أو مغربية، كما أنها ليست أجنبية أو محلية بل هي النص الأدبي الذي يطالب بهويته الأدبية قبل أية هوية أخرى- " 16

و ختاما ، ينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن المترجم الأدبي محكوم بمجموعة من الثوابت تكون في مجملها غير لسانية ؛ فتملك النص و امتلاكه قضية حتمية لا غنى عنها ؛ غير أنه لا ينبغي أن يستسلم لسطوة الإبداع، و إن كانت حريته لا حدود لها " فالفكرة الأولى للعمل الأدبي، في الواقع ليست له، وإذا كان عليه أن يكون مبدعا و جريئا، ينبغي عليه كذلك أن يتوفر على ما يكفي من التواضع لكي لا يتصرف باعتباره صانعا ويحجب بصوته الخاص كلام الغير " .17

فالمترجم الأدبي، إذن، مدعو إلى أن يكون أمينا أكثر من غيره، بل إن الحرية التي تمنحها له النصوص الأدبية قيد يجعله مجبرا لأن يكون أمينا، أمينا لأفكار غيره، لآرائهم على اختلافها، و لانتماءاتهم على تعددها، و اعتقاداتهم على تنوعها . فمسؤولية المترجم حيال النص الأصلي من جهة، و حيال القارئ من جهة أخرى تحتم عليه الخضوع لبعض الضوابط الثقافية و الاجتماعية والدينية ... إنها ضوابط تكون في مجملها ضوابط غير لسانية، تجعل من مسألة الحرية المطلقة في الترجمة الأدبية مسألة نسبية مثلما أن الدقة، هي الأخرى، بدورها، مسألة نسبية في الترجمة الأدبية.

الهوامش:

1- عبود عبده ، الأدب المقارن - مدخل نظري ودراسات تطبيقيـــة - منشورات جامعة البعث . 1997-1998. ص 125.

2- باسنيت سوزان . الأدب المقارن مقدمة نقدية. ترجمة أميرة حســن نويرة . المجلس الأعلى للثقافة ..1999 ص 160.

3- فورطيناطو اسرائيل . الترجمة الأدبية..تملك النص. ترجمة مصطفى النحال. مجلة المترجم .ع 04.جوان 2002 . الجزائـــر . دار الغـــرب للنشـــر والتوزيع. ص 221.

4- ينظر باسنيت سوزان . المرجع نفسه . ص 163.

5- عبودعبده. المرجع نفسه . ص 125.

6- باسنيت سوزان. المرجع نفسه.ص 161.

7- باسنيت سوزان. المرجع نفسه.ص 170.

8- عبودعبده. المرجع نفسه . ص 126.

9- عناني محمد. الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيـــق. القـــاهرة .دار نوبار للطباعة.ط1. 1997.ص06.

10- عناني محمد.المرجع نفسه. ص 07.

11- عبود عبده. القصة الألمانية الحديثة في ضوء ترجمتها إلى العربية. دمشق . منشورات اتحاد الكتاب العرب.1996.ص 15.

12- عبود عبده ، الأدب المقارن - مدخل نظري ودراسات تطبيقية - ص 132.

13- فورطيناطو اسرائيل . الترجمة الأدبية..تملك النص. ص223.

14- فورطيناطو اسرائيل. المرجع نفسه. ص223.

*- ترجمت " ليلة القدر" ترجمة مغربية من قبل محمد الشركي. المغرب، دار طوبقال ، البيضاء، 1987 و ترجمة مصرية لفتحي العشري . القاهرة ، الهيئة المصرية .1988.

15- علوش سعيد. ترجمة النص الأدبي بين التنظير و الإبداع ، مجلة علامات ،المغرب، ج 10. م3 ، ديسمبر 1993. ص 52

16- علوش سعيد . المرجع نفسه .ص74.

17- فورطيناطو اسرائيل. المرجع نفسه. ص225.